بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

(٩)

الحلاج وأعلام التصوف فى عصره :

ومن صلة الحلاج بالله ، تكونت فلسفته الذوقية والإيمانية ، التى عرفت فى التاريخ بالحلاجية ، تلك الفلسفة التى طبعت التصوف فى عصره الذهبى — عصر الحلاج — بطابعها ، والتى غدت كما يقول — نيكلسون — الراية التى تأتم بها العصور التى تعاقبت من بعده ، والتى جعلت رجال الفكر الأوربى ، يطلقون على الحلاج لقب « المفتى » فى الأمور الصوفية ، كما يقول العلامة — ليبنتر —

ومن صلة الحلاج بالله ، انبثقت شخصية الحلاج ، تلك الشخصية التى تلاقت فيها ، العملاقية الجبارة الرهيبة ، بالروحانية المشعة الحبيبة .

تلك الشخصية التى شكلت وخطت فى التصوف الإسلامى أروع آياته ، وأخلد مواقفه .

وشخصية الحلاج عندى من ألغاز التاريخ ، ومن مواقف العقول .

فهى شخصية فى ملامحها العقلية والإيمانية ، عمق يندفع جباراً إلى أغوار ليس من السهل على الباحث أن يلاحقها فى اندفاعها ، وأن يتابعها فى مسالكها .

وفى آفاقها الذوقية والخلقية ، انفساح وشمول ، تقصر أجنحة الدارسين عن الدنو منها ، والإمساك بآثارها .

إن الحلاج يفهمه القلب ، أكثر مما يحيط به العقل ، ويدركه الحس ، ويدنو منه الوجدان ، أكثر مما يحلله الفكر والبيان .

إنه فى حاجة إلى أن نرتفع بأذواقنا ومواجيدنا ، وأن نتلمس بأرواحنا وأشواقنا ، الطريق الذى نطل من نوافذه على أسرار ذلك الروح الكبير ، الذى حاول فى عظمة شاهقة ، أن يكون صورة الولى الكامل ، المعبر عن الله .

والذى حاول فى بطولة خارقة ، أن يكون الشهيد الذى يكتب بدمه آية الفداء لحبه وعقيدته .

الشهيد الذى وقف على آلة صلبه ، يتحدى الدنيا فلما قطعت أعضاؤه ، وتدفق دمه ، أخذ يتوضأ بهذا الدم ، فلما سئل ماذا تفعل ، قال : « ركعتان فى العشق لا يصح وضوؤهما إلا بالدم » .

ولسنا هنا بصدد تحليل تلك الشخصية الخارقة ، فلهذا مكانه من تلك الدراسة .

وإنما نقدم لمحات ، ترشد وتومىء إلى شخصية الحلاج ، وتلقى شعاعاً من الضوء على أسرارها .

وتلك اللمحات التى نقصدها ، هى موقف أعلام التصوف الإسلامى فى عصر الحلاج من الحلاج ؟ وموقف الحلاج منهم .

يقول المستشرق — الفرد فون كريمر — : « فالكل مجمعون على أنه كان على رأس فرقة كبيرة ، وأنه كان له أتباع كثيرون ، أعجبوا به ، واتخذوه إماماً ومرشداً [1] » .

ويذكر لنا ماسنيون [2] : أن كثيراً من الأمراء ، وقواد الجيش ، وعظماء الدولة العباسية ، وأعلام المعتزلة ، وفقهاء الحنابلة ، وصفوة من المفكرين والمصلحين ، ومع كل هؤلاء جمهرة كبيرة من الناس ، كانوا جميعاً من أتباع

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه لينكلسون ص ١٣٠

(٢) شخصيات قلقة فى الإسلام .

الحلاج ، ومن تلاميذه ، ومن المؤمنين بقداسته وولايته ، ودعوته الإصلاحية :

ومع هذا كله ، فإن عدداً من أعلام التصوف الإسلامى فى عصره ، قد خاصمه ولم يناصره فى أهدافه وصيحاته ، ولم يسانده فى محنته واستشهاده .

لقد جاء الحلاج ليضيف جديداً إلى التصوف الإسلامى ، فى صلته بالله ، وفى صلاته بالحياة .

لقد جاء الحلاج ، لا ليكون صورة مكررة من الناس أو من العلماء ، أو سطوراً متلألئة فى كتب التاريخ بجانب السطور التى خطها المفكرون أو العابدون .

جاء ليكون كتاباً وأمة ، جاء ليقيم منهجاً ، ويرسم طريقاً ، ويفتح أفقاً ، ويجعل من نفسه بعد هذا « صورة صادقة معبرة وقائمة بمنهجه وطريقه وأفقه .

جاء ليصنع من تاريخه معالم وصوراً ، تهتدى بها الانسانية ، فى سيرها المضىء إلى الله ، وفى جهادها العنيف للكمال والتسامى .

كان الحلاج ينشد فى المعرفة ، أن يظفر الصوفى ، بحظ من الفيض الالهى ، ليعبر دائماً عن الارادة الالهية .

فإذا عبر عنها ارتفع إلى أفقها وقداستها ، فأصبح قوله ، صورة إيمانه فى دنياه ودينه .

ومن هنا جاءت عظمة العقيدة الحلاجية ، التى أخذت كل شىء بقوة وعزم وبقداسة ، ولم تقبل أبداً ، تساهلاً ، أو ترددا ، أو تقية .

يقول الحلاج : « الواجب على أولياء الله ، أن يتوجهوا إلى الله وحده ، ويتحققوا بمعنى العبودية الكاملة ، ويطيعوا أمره مهما كلفهم ذلك ، من عنت وشقاء » .

والولاية عند الحلاج : تبلغ كمالها عن طريق الابتلاء ، واحتمال الألم ، وتبلغ جلالها بالجهاد والتضحية .

فالصوفى المحب ، هو الذى وهب نفسه لله ، وصبر على ابتلائه فى دنياه ، صبره على امتحانه فى حبه وإيمانه .

يقول الكلاباذى : « — ١ — سمعت بعض مشايخنا يقول : سمعت محمد بن سعدان يقول : خدمت أبا المغيث — الحلاج — عشرين سنة ، فما رأيته أسف على شيء فاته ، أو طلب شيئاً فقده »

ويقول : « — ٢ — وكان أبو المغيث ، لا يستند ولاينام على جنبه ، وكان يقوم الليل ، وإذا غلبته عينه ، قعد ووضع جبينه على ركبته ، فيغفو غفوة ، فقيل له : ارفق بنفسك ! فقال : والله ما رفق الرفيق بى رفقاً فرحت به ، أما سمعت سيد المرسلين يقول : أشد الناس بلاء ، الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »

ويقول : « — ٣ — سمعت بعض أصحابنا ، يقول : سمعت بعض الكبراء — الحلاج — يقول — : ربما أغفو غفوة وأنادى : أتنام عنى ؟ إن نمت عنى ، لأضربنك بالسياط »

والصوفى المحب لله ، هو الذى يقوم بكلمات الله فى الأرض ، مجاهداً مناضلا مضحياً بكل شيء ، حتى تعلو كلمة الحق . وتمشى الإنسانية ؛ على الصراط المستقيم .

إن المحبة هى التضحية وهى الجهاد ؛ والصوفى المحب لله . هو من كانت كلماته صورة عمله فى الدين والدنيا .

ومن هنا لم يكن زهد البسطامى ، ولاتقية الجنيد ، ولاسلبية المكى . ولاتردد الشبلى ، مما يرضى عنه الحلاج .

لقد ثار الحلاج فى عنف . وفى قداسة . على ولاة عهده . وفساد عصره .

كما ثار فى عنف وفى قداسة ، على السلبية الزاهدة التى عاشها كبار المتصوفة من معاصريه ، الذين قنعوا بعبادة الله وحبه ، غير ناظرين إلى واجباتهم حيال خلقه .

لقد عاب الحلاج على أبى يزيد البسطامى زهده العنيف الذى اتخذه طريقاً للوصول وقنع به ، فالوسيلة هنا ليست هى الأداة الكاملة ، وليست هى غاية التصوف أو سبيله .

إن الصوم والصلاة ، ليست طرقا موصلة إلى الله ، بذاتها ، كما أن الذكر لايعتبر وسيلة تفرض النتيجة على الله سبحانه .

إنما هو الحب ، الحب الذى يقربنا إلى الله ، الحب تحترق فيه شهواتنا

ونزواتنا وأرضيتنا ، الحب الذى يزورنا الله خلال لهيب وجده ، ويمديه إلينا ، ويباركنا ويلهمنا ، الحب مع التضحية الكاملة ، ومع القيام الكامل بحق الله علينا فى عبادته ، وبحق الله علينا حيال عباده .

ويروى لنا على بن أنجب الساعى ، عن أبى محمد الجسرى ، المعاصر للحلاج ، قصة تاريخية ، تعطينا صورة عن خصومات الحلاج مع صوفية عصره ، وكيف بدأت تلك الخصومات .

د ـ ١ ـ عن أبى محمد الجسرى قال : رأيت الجنيد ينكر على الحلاج ، وكذلك عمرو بن عثمان المكى وأبو يعقوب النهر وجورى ، وعلى بن سهل الأصبهانى ، ومحمد بن داود الأصبهانى .

أما أبو يعقوب فقد رجع عن إنكاره فى آخر عمره ، وأما عمرو بن عثمان ، فكان علة إنكاره أن الحلاج دخل مكة ولقى عمرا ، فلما دخل عليه قال له : الفتى من أين ؟ فقال الحلاج : لو كانت رؤيتك بالله لرأيت كل شىء مكانه ، فإن الله تعالى يرى كل شىء ، فخجل عمرو وغضب عليه ، ولم يظهر وحشته حتى مضت مدة ، ثم أشاع عنه أنه قال : يمكننى أن أتكلم بمثل هذا القرآن ! ؟

وأما على بن سهل فدخل الحلاج اصفهان وكان على بن سهل مقبولا عند أهلها ، فأخذ على بن سهل يتكلم فى المعرفة ، فقال الحسين بن منصور : يا دسوقى تتكلم فى المعرفة وأناحى ؟ فقال على بن سهل : هذا زنديق ؟

وأما الجنيد ، فكنت عنده ، إذ دخل شاب حسن الوجه والمنظر وعليه قميصان ، وجلس سويعة ، ثم قال للجنيد .

ما الذى يصد الخلق عن رسوم الطبيعة ؟ فقال الجنيد : أرى فى كلامك فضولا ! أى خشبة تفسدها .

فخرج الشاب حزيناً وخرجت على أثره ، وقلت : رجل غريب قد أوحشه الشيخ ، فدخل المقابر ، وقعد فى زاوية ، ووضع رأسه على ركبته .

فأتيت الشاب وجلست بين يديه ألاطفه وأداريه ، ثم قلت : الفتى من أين ؟ قال من بيضاء فارس ، إلا أننى ربيت بالبصرة .

فاعتذرت لديه للجنيد ، فقال : ليس له إلا الشيخوخة ، وإنما منزلة الرجال تعطى ، ولا تتعاطى ... »

ثم تغلظ هذه الخصومة ، كلما اندفع الحلاج إلى الثورة على فساد عصره ، وإلى الدعوة إلى حكومة الأولياء والأقطاب ، كما كان يسميها الحلاج .

وأخذ الحلاج فى عنف وفى قداسة يتحدى أعلام المتصوفة فى عصره .

إنه رجل عقيدته صورة قوله ، فلا مجاملة عنده فيما يعتقد أنه الحق .

روى الكلاباذى فى التعرف : « أن الحلاج حفر حفرة وأوقد فيها النار ووضع هاوون حتى صار كالجمر ، وقال لمن يجادله من الصوفية ، ومن كبار العارفين: من كان صادقا بالله فليتقدم ويقف على الهاوون داخل النار ، فلم يقدر على ذلك أحد .

ثم أنه تقدم ووقف عليه فذاب تحت أقدامه ، حتى صار كالماء »

ويروى القشيرى فى رسالته : « ١٠ — قال الحلاج لابراهيم الخواص : ماذا صنعت فى هذه الأسفار ، وقطع هذه المفاوز ؟ قال : بقيت فى التوكل ، أصحح نفسى عليه ؟ فقال الحلاج : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد »

إنها السلبية عند غيره ، والإيجابية عنده ، قال الشبلى « كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت » .

والإيجابية الحلاجية ، التى تجعل الحلاج يدخل مسجد بغداد وأبو القاسم الجنيد يتكلم على المنبر ، والجنيد هو الجنيد مكانة وعلما .

فيهتف به الحلاج على مسمع من الدنيا : يا أبا القاسم إن الله لا يرضى من العالم بالعلم حتى يجده فى العلم فإن كنت فى العلم فالزم مكانك ، وإلا فانزل فنزل الجنيد ، ولم يتكلم على الناس شهراً — ٢ — »

يقول الحلاج فى عزة الواثق من نفسه : « من تكلم عن غير معناه ، فقد تحمر فى دعواه ، ثم تلا قوله تعالى : كمثل الحمار يحمل أسفارا : »

« البحث مستمر »